خطبة صلاة الجمعة 2025/8/1 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال، في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الاشتغال بالنافعات)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105]

وقال ربنا: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)﴾ [السجدة: 18-20]

أخرج الإمام الترمذي عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ، رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«لا تزولُ قدَمَا عبد يومَ القيامة، حتى يُسألَ عن أربع: عن عُمُره فيما أفناه؟ وعن عِلْمِهِ ما عمِل به؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيما أبلاه؟»**.

عنوان خطبة اليوم: **الاشتغال بالنافعات**

أيها الإخوة:

تفكّرتُ في مقاصد الشريعة الكبرى فإذا هي أربعة: تحقيق العبودية لله تعالى، وعمارة الأرض، وتحقيق العدالة والمساواة، ونشر التآخي والتعاون والتحابب بين الناس.

ومرجع هذه المقاصد إلى الاشتغال بالنافعات، فهي مقاصد جليلة عظيمة تحتاج إلى عمل دؤوب وبذل

الأعمار لتحقيقها، فهل يجد المسلم بعدها وقتاً ليقتله بالقيل والقال وبكثرة الجدال، أم أنه يجتهد في الاشتغال بالنافعات!

قرأتُ في أوّليات عمر ﷺ أنه أول من كتب التاريخ من الهجرة، وأول من اتخذ بيت المال، وأول من عَسَّ بالليل، وأول من اتخذ الديوان، وأول من فتح الفتوح ومسح السواد، وأول من حمل الطعام من مصر في البحر الأحمر إلى المدينة، وهو أول من استقضى القضاة في الأمصار، وأول من عرف العُرفاء، وأول من وسَّع مسجد رسول الله ﷺ، وأول من فرض الأعطِيَةَ والأرزاق، وأول من ضرب النقود، وأول من مصّر الأمصار: الكوفةَ، والبصرةَ، والجزيرةَ، والشامَ، ومصرَ، والموصلَ.

ترى هل كان عمر ﷺ يجد وقتاً ليقتله بكثرة الكلام وطول المنام واللهو الحرام، أم أنه كان يجتهد في الاشتغال بالنافعات؟

امتدت الدولة الأموية في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك من حدود الصين شرقاً حتى (بواتييه) جنوب فرنسا غرباً، فشملت إيران والهند والصين وآسيا الوسطى في الشرق، وشمال أفريقيا وإسبانيا والبرتغال في الغرب، فضلاً عن جزيرة العرب وبلاد الشام والرافدين.

وبلغت مساحتها حوالي 25 مليون كيلومتراً مربعاً.

فكانت أكبر الدول الإسلامية من حيث المساحة، حَكَمها الخليفة الأمويّ من عاصمتها دمشق.

شهدت هذه الرقعة الممتدة تطوراً عمرانياً وإنسانياً وعلمياً، فقد اهتم المسلمون ببناء المدن وتشييد المساجد والقصور والمكتبات، فهُمُ الذين بَنَوا مدينة (الرّصافة) في الشام و(واسط) في العراق و(قُم) في إيران و(حلوان) في مصر و(القيروان) في تونس ومدينة (الزهراء) في الأندلس، وهم الذيم أشادوا (الجامع الأموي) بدمشق و(قبة الصخرة) في القدس الشريف و(قصر المشتى) في الأردن و(مسجد قرطبة) في الأندلس.

وشهد العصر الأموي حركة ترجمة واسعة، وتدويناً واسعاً للعلوم بكافة فروعها؛ فقد أَنشأت الدولة الأموية في قرطبة **سبعين** مكتبة عامة فضلاً عن المكتبات الخاصة، وكانت المكتبة المركزية في قرطبة تحوي **أربعمئة ألف** مجلدة، على حين أن ملك فرنسا في القرن الثامن الهجري لم يستطع أن يجمع في مكتبة فرنسا الرئيسة أكثر من تسعمئة مجلدة!

أما الدولة العباسية في عاصمتها بغداد – (دار السلام) قديماً – فقد كان من يترجم كتاباً للعربية يحصل من الخليفة المأمون على ما يعادل وزن الكتاب ذهباً!

ترى هل كان أولئك الفاتحون المسلمون الحضاريّون يجدون وقتاً ليضيعوه بالصدّ والردّ وهدر الساعات بلا عدّ، أم أنهم كانوا يجتهدون في الاشتغال بالنافعات؟

نزلت سورة الانشراح (ألم نشرح لك صدرك) على النبي ﷺ في مكة، في زمن الشدة والقلّة والضيق.

مطلع السورة حديث عن الانشراح: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، وخاتمتها حديث عن العمل: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)﴾، بل إنه حديث عن الاجتهاد في العمل والتعب فيه.

قال المفسرون: (هذا دليل على طلب الاستمرار في العمل الصالح والخير والمثابرة على الطاعة لأن استغلال الوقت مطلوب شرعاً، وإن الله يكره العبد البطّال).

وكأنّ سورة الشرح تربط بين العمل الصالح والعلم النافع وانشراح الصدر، وبين كثرة الفراغ وضيق الصدر. فكلّما اتّسع وقت الفراغ ضاق الصدر، وكلما ضاق وقت الفراغ اتّسع الصدر وانشرح.

ترى هل نجدك أيها الأخ الكريم وأيتها الأخت الفاضلة مع مضيعي الأوقات على مواقع التواصل المشغولين بتقييم الناس ومجادلتهم، أم نجدكم مع من يمضي وقته في الاشتغال بالنافعات؟

أيها الإخوة:

الشام أحوج ما تكون اليوم إلى البناء والتعمير لا الجدال والتشهير، إلى العمل النافع لا الوقت الضائع، إلى تحسين الواقع المعاشي لا إلى تجميل الواقع الافتراضي، إلى رجال تبني لا إلى رجال تحكي.

ولن يتحقق هذا إلا باشتغال عامة الناس وخاصتهم بالنافعات.

فالطالب حين يجتهد بدراسته، والعامل حين يُتقن عمله، والزارع حين يرعى زرعه، والمعلِّم حين يعتني بطلبته، والتاجر حين يصدق بتجارته، والصانع حين يمهر بصناعته، والحِرفيّ حين يتقن حرفته، والموظف حين يخدم مراجعه، والعسكري حين يذود عن وطنه، والطبيب حين يُشفِق على مريضه، والوالد حين يربي ولده، والابن حين يَبَرّ والده، والمسؤول حين يخدم رعيته، والرعية حين تعين على الخير وَلِيّها... كل أولئك يشتغلون بالنافعات.

أما إذا تحوّل الشاب إلى "يوتيوبر" للمقالب والإضحاك، وتحولت الفتاة إلى مستهلكة لمساحيق التجميل ومضيّعة للأوقات، وتحوّل الرجال إلى مراقبين منتقدين للعاملين والمنتجين، وتحولت النساء إلى ناقدات سلبيات للساسة والمصلحين، فاعلم بأن القوم لم يشتغلوا بالنافعات.

وقد جاء في الأثر عن معروف الكرخي –رحمه الله– قال: (إذا أراد الله بعبدٍ شَرًّا، أغلق عنه بابَ العمل، وفتح عليه بابَ الجدَل).

أيها الإخوة:

الاشـــتغال بالنافعات ديدنُ المســـلم، خاصَّـــةً وأنّ العمر قصـــير وأنّ الســـفر بعيد وأنّ العقبة كؤود.

قال الحسن البصري -رحمه الله-: (يَتَوَسَّدُ الْمُؤْمِنُ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ فِي قَبْرِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، فَاغْتَنِمُوا الْمُبَادَرَةَ رَحِمَكُمُ اللَّهُ).

والحمد لله رب العالمين